الاجتماع

وعلم الشعوب وآدابها وحكمتها
في « الفولكلور » العالمي

للاستاذ محمد لطفي جمعة المحامي

— ١ —

كلمة فولكلور Folklore معناها علم الشعب وهو مجموعة الأساطير والأمثال والشعر والنوادر والحكم المحكية والمحفوظة عن ظهر قلب والمروية بين الأفراد والجماعات والمستشهد بها في البوادي والحواضر . ولهذا العلم شأن كبير في علم الاجتماع لأن فيه الدلالة على طرق التفكير في الحياة ووسائل الفهم التي ترشد العامة وهي الكثرة الغالبة وتنير أذهان الخاصة في علاقتهم بالطبقات النازلة من المجموع . وأول من عني بهذا العلم عناية خاصة الأستاذ ماكس مولر الأستاذ بجامعة أكسفورد وازيكو نيري ونيتشوفورو وبرايس من علماء الاجتماع الاوربيين . وفي الشرق ألف الميداني الشهير كتابه في الأمثال عند العرب وذكر أسباب شيوعها وحكمة الاستشهاد بها وهو يعد من أمهات كتب الأدب العربي . وفي العصر الحاضر فان جنب الفلاسكي وفي مصر المرحوم محمود عمر الباجوري أحد علماء الأزهر ودار العلوم وأحد أعضاء الوفد الذي بعث به في سنة ١٨٩٣ الى مؤتمر المستشرقين في استوكهلم عاصمة سكاندناڤيا (التي كانت مكونة من السويد والنرويج متحدة تحت إمرة ملك واحد) . وقد ألف هذا العالم المصري كتاباً في الأمثال . وآخر في الأغاني والمواويل وثالثاً في النوادر والقصص الشعبي . وأثبت ان قصة لوهنجرين (أوبرا الثانية من وصع وتلجين وإشارد ثلجنر) هي نفسها قصة عويد السدب التي تروى للاطفال في القرى المصرية

— ٢ —

وقد اتخذ الفولكلور العالمي في أدب اللغة العربية القديمة صورة النقامة وهي في اصطلاح علماء الادب العربي قطعة من النثر يضاف اليه نظم في كثير من الاحوال ، مبنية على قصة قصيرة خيالية في معناها وحوادثها ترمي الى مغزى مفيد وتؤدي الى استخراج دقيقة أو

حكمة للتدبر والاعتبار على الغالب، ولكل مقامة أو مجموعة من المقامات بطل واحد منفرد بصفات معينة كعيسى بن هشام أو ابي زيد السروجي . ويدور على هذه الشخصية أهم ما في القصة من ذكاء وحذق ولباقة وكياسة وسعة ادراك وحيلة ، ومفاجآت ومغامرات وغرائب . وليس البطل في المقامة هو الذي يروي الواقعات أو يسرد الحوادث كما هي الحال في قصة سندباد البحري بل له راوية يسجل أقواله وحوادثه كالحارث بن همام في مقامات الحريري وعيسى بن هشام في مقامات بديع الزمان الهمذاني التي بطلها أبو الفتح السكندري الذي يقول :

اسكندرية داري لو قرّ فيها قراري
لكنّ بالشام لبّي وبالعراق سهاري

أي انهُ جوّاب آفاق وصاحب مغامرات ، سريع في التنقل وكأنهُ تلبأ بعصر السفر بالطائرات فهو يمسي في الشام ويصبح في العراق ولا يقر له قرار في وطنه الاسكندرية

وأسلوب المقامات أحد فنون الأدب العربي

وحجتنا في انها كانت مجمع الادب الشعبي ان أصل اللفظ اللغوي «مقامة» معناه مجلس أو نادٍ يقول فيه العلماء والادباء والوعاظ حكمتهم وأدبهم ووعظهم ويضربون أمثالهم للحاضرين والسامعين . وذكرها الجاحظ في كتاب البخلاء ص ٢١١ فقال « يفيضون في الحديث ويذكرون من الشعر [الشاهد والمثل] ومن الخبر الايام [والمقامات] »

وقد سرى فن المقامة المنطوي على أدب الشعب وأمثاله وحكمته من العرب الى سائر الشعوب السامية فقلدهم العرس والعبرانيون والسريان فوضعوا مقامات باللغة العربية بعد أن تعلموها وأتقنوها . والخلاصة ثم الخلاصة من الظن بأن القصص التي تلقى على العامة كقصة سيف ابن ذي يزن أو قصة عنتر أو فاطمة ذات الهمة هي من نوع الفولكلور أو الادب الشعبي . فان هذا نوع آخر يقصد به الى تثقيف الجماهير وتسليتها . أما الفولكلور وفي مقدمته المقامة لايقصد به الا تعليم العامة الحكمة الانسانية على وجه الاختصار والايجاز بأسلوب رائعة لامعة تأخذ بالالباب

نعم ان المقامات العربية كمقامات بديع الزمان من أهل القرن الرابع الهجري ، قرن الشعر الغني ، ومقامات الحريري من أهل القرن السادس الهجري ، كتبت جميعها باللغة العربية الفصحى ، لانها كانت لغة الكتابة والخطابة والحديث والامثال . وكذلك المرحوم اليازجي (من أهل القرن الرابع عشر الهجري) لما وضع كتاب عيسى بن هشام عن حياة القاهرة في القرن التاسع عشر والعشرين المسيحي اتبع اللغة العربية بأسلوب مصنوع (مصطنع متكلف) مشجع غاية في التأنق والتزويق يجمع من شوارد اللغة وفصيحها وعيون مفرداتها وتراكيبها

وأمثالها ونوادرها مقدراً وافراً . ولكنَّ هذا العمل كان تقليداً للحريري، وبديع الزمان وقد كان أكثر تحرراً من سابقه . ولكنَّ أول من كتب المقامات وهو أبو بكر بن دريد (من أهل القرنين الثالث والرابع الهجري) لم يتبع الأسلوب الفصيح بل كتبها بلغة مخالفة. والدليل على ذلك ما جاء في كتاب زهر الآداب « ان ابن دريد جاء بأربعين قصة وذكر انهُ استنبطها من ينابيع صدره وأنتجها من معادن فكره وأبداها للأبصار وأهداها الى الافكار في معارض حوشية وألفاظ عنجهية جفاة أكثرها تنبو عن قبوله الطباع ولا ترفع له حجب الاسماع وتوسع فيها اذ صرف ألفاظها ومعانيها في وجوه مختلفة وضروب منصرفة » انتهى كلام زهر الآداب ويستنتج منهُ أن ابن دريد ألف هذه الاربعين قصة وكتبها بلغة الشعب وأمثالهم فنفرت منها أسماع أهل الادب ولكنهُ يعد بحق مسجلاً اولاً للأدب الشعبي

ويتكلم مؤلف زهر الآداب عن مقامات ابن دريد أو قصصه الشعبية كلام من قرأها واطلع عليها ولم توافق ذوقه. وقد فقدت هذه المقامات ولو وجدت لكانت جزءاً مهمًّا من الادب العربي القديم وتحفة وطرفة تاريخية ولكن بديع الزمان نفسه ألَّف اربعمائة مقامة فقد منها خمسون وثلثمائة مقامة ولم يبق منها الا خمسون

ولكن أديباً معاصراً وهو الاستاذ العالم الفاضل خليل مردم بك أحد أعلام الادب الشامي بدمشق اهتدى بعد بحث طويل واستقراء الى العثور في أمالي أبي علي القالي — وهو تلميذ ابن دريد وخليفته في فنون الادب — على احدى عشرة قصة مبعثرة في الأمالي رواها صاحبها عن استاذه ابن دريد وهي اكثر من ربع المقامات التي ألفها فيكون حظ ابن دريد أسعد من حظ بديع الزمان لان الذي بقي من مقاماته ثمنها فقط . واليك عنوانات هذه القصص التي تدل بمجرد الاطلاع عليها انها من صميم علم الشعب (فولكلور)

١ — حديث المنسوة اللاتي أشرنَ على بنت قيل من أقيال حمير بالزواج ووصفنَ لها محاسن الزوج (ج ١ من أمالي القالي ص ٨٠)

٢ — حديث زرياب الكاهنة تندب بني رئام من قضاعة بين الشحر وحضرموت ج ١ ص ١٢٦

٣ — حديث خناقر الحميري مع رئيه شمار (الرئي معناه الروح الجني الذي يألف رجلاً ويطلعه على الغيب) ج ١ ص ١٣٣

٤ — قصة مصاد بن مذعور وخروجه في طلب ذود له وما اخبره به الجواري الطوارق بالحمى ج ١ ص ١٤٣

والجواري طوارق بالحمى هنَّ من الجن اللواتي تظهر للبشر وتتشبهم بالحوادث وتتجسم

يطرق الحصى مثل الاسطورة التي سجلها شكسبير في مأساة ماكبث الشهيرة . وخلاصتها ان ثلاث عجائز من الجن ظهرن له في الغابة وتنبأن له بعد حرق البخور بانه يقتل ابن عمه الملك دنكان ويصل الى عرش اسكوسية . فكان ذلك باعثاً له على قتل ابن عمه

٥ — حديث غسان بن جهضم مع ابنة عمه ام عقبة وكيف تراءى لها في المنام بعد وفاته ذيل الأمالي ص ٢٠٥

وقد ذكرنا بعض هذه المقامات أو القصص التي ألفها ابن دريد ولا سيما التي فيها اخبار النساء والكهانة والاخبار عن الغيب والاحلام والرؤى وشخصيات الجان لان علم الفولكلور يدور على هذه المسائل . ولا ننسى ان اهل الشام يطلقون على علم الفولكلور اسم « دفتر النسوان » وفي مصر يسمونه « علم الركة »

ومجمل القول في هذا الباب ان علم الفولكلور قديم عند العرب يرجع الى القرنين الثاني والثالث للهجرة . هذا اذا لم نرد ان نعود الى الادب الجاهلي الذي كان حافلاً حاشداً بهذا النوع من الامثال والحكم والمواعظ . وعلى الرغم من رسالة الاسلام التي قضت على الكهانة والاساطير واخبار الجن والتنجيم والرجم بالغيب فان هذا الفن (فولكلور) ظهر في الاسلام مدوناً من القرن الثاني

— ٣ —

وفي الوقت الحاضر أخذ علم الفولكلور في الأدب الأوربي مكانة عليا لأنه يساعد الباحثين على الوصول الى ما يتطلبونه من المعلومات من ينابيعها الأصيلة فيما يتعلق بمظاهر الحياة البادية التي يحياها هؤلاء الناس الذين يتصدون لدرس عاداتهم وما احتفظوا به من تقاليدهم القديمة وما هم عليه من الأوضاع الاجتماعية والفردية فيعثرون على كثير من المواد التي يعتد بها العلم ويقارنها مع غيرها من أوضاع اجتماعية جرت عليها الناس في بلاد أخرى من بلاد العالم مما يدخل في اختصاص علوم كثيرة منها علم طبائع الشعوب (انثولوجيا) وعلم الاجتماع وعلم التقاليد والعادات

ومن أهم آثار الفولكلور العلم القائم بذاته بين العلوم أنه عمد الى تحليل مؤلفات الأدب العامي سواء أكانت كتابية أم مخطوطة أم محكية ومروية وهي الحكايات والأحاديث المطولة (حواديت) والاغاني والتواويل (موالي) والأمثال والنكات والأمثال العامية التي لا يمكن الدور عليها في نتاج الكتاب ولكن رواتها وتداولها بين الناس بجعلانها قريبة من النبات في شكلها مما يمكن ان نسميها مؤلفات أدبية . فأسمى مؤلفات الأدب الغربي وأشهرها

كالالياذة والاوديسة وما شابهما كتبت وقاوست مدينة بأصلها الى الخرافات العامية والاساطير وكثيراً ما يكون فيما كتبه الكتاب في القرون الوسطى ولا سيما المؤرخون والجغرافيون منهم كلمات وتعابير خاصة بالصناعة والهندسة والثياب والمطاعم والتجارة والملاحة لا يمكن العثور على معانيها في أكمل القواميس العربية وأكبرها ولكن كثيراً ما تكون هذه الكلمات باقية في لغة من اللغات العامية التي كانت السبب في حفظها وعدم ضياعها (أنظر درس المستشرقين اللغة العامية للمستشرق أدمون صوسه ترجمة الداغستاني سنة ١٩٣٣) أما فيما يتعلق بالأدب العربي فانهُ مستمد من حياة الاعراب اليومية قبل الاسلام . ومن المعلوم ان الشعر والمقامات والأخبار التي ترجع بأصولها الى حكايات كانت ترويها وتتغنى بها وترددها وتنشدها طائفة من القصاص والرواة والوعاظ والناصحين والمرتزقة ضربوا في مجاهل الارض على عدد من أفراد الشعب يلتفون حولهم في زاوية من زوايا الطرق أو تحت خيمة أو في فناء قصر أو في مجلس عظيم أو في حلقة قراء

فكيف يمكن بعد ذلك أن يدرس الأدب العلي أو علم الاجتماع أو أخلاق الشعوب أو أخلاق المجرمين أو عادات المتشردين أو ضحايا المخدرات أو طبائع العمال والصناع والفلاحين والزراع دراسة علمية اذا أهملت دراسة هذه الآداب والفنون والتحف العامية

وكثيراً ما يكون في الادب العامي ذي الطابع المحلي الخاص من العبقريات ما عسى أن لا يظهر في الادب الصحيح العام الذي قلَّ أن تبرز فيه الطبيعة المحلية الخاصة . (أنظر كتاب ويلمور القاضي الانجليزي عن براعة النكتة والفكاهة في اللغة العربية العامية بمصر ١٩٠٣ ففي فصول «خيال الظل» و«قره جوز» يظهر الفرق جليًّا واضحاً بين الامزجة المصرية والعربية والتركية فقد نقل المصريون والسوريون هذه الفصول عن الترك واليونان (بطل قره جوز اليوناني كاراجوزيادس) وفي فرنسا اللعب المسمى guignol grand وروايات وقصصه وأشعاره وأغانيه

وفي انكلترا Punch and Judy show وفي كل من البلاد الخمسة أو الستة التي ذكرناها حلت مظاهر الطبيعة القومية المحلية محل مظاهر الطبيعة المنقول عنها في الاغاني والاناشيد التي تتخلل هذه الفصول مثلاً قامت العاطفة العربية الحزينة الولهاء مقام العاطفة التركية المفاهة

وفي فرنسا حلت عاطفة الهذر والمزاح والمجون محل النكتة الانجلوسكسونية الباردة القارصة التي كأنها لفحة هواء أو أثر من عاصفة